حقيقة المولد النبوي الشريف ومكانته في التاريخ البشري

الأستاذ: الربيع ميمون - جامعة الجزائر

1- إن الليلة التي ولد فيها نبينا عليه الصلاة والسلام تمتاز عند علمائنا بكونها أفضل ما في العام والتاريخ كله من الأزمنة والأوقات، لأن ظهوره إلى الوجود فيها جعل منها ليلة غراء عامرة بالمعاني والوعود، إذ جعل منها لتاريخ البشرية القديم، وبداية لتاريخها الحديث إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويعني هذا أنها ليلة لم تزل سفينة التاريخ منذ بدايتها تتوجه نحو مرساها لتتوقف عندها إذ بها تنتهي مسيرتها الأولى، ثم لتنطلق منها وهي تصل إليها، لتشرع في مسيرتها الثانية، وتتوجه بالإنسانية نحو السواحل الآمنة التي تستطيع شعوبها أن تحقق فيها إذا استجابت لأمر ربها، ما لم تزل ولا تزال تصبو إليه من التقدم والكمال في مجالات حياتها، ومن الطمأنينة والسعادة في كل أحوالها.

2- هذا، وأما النبي عليه الصلاة والسلام الذي استبشرت الكائنات كلها بمولده فيها فإنه أفضل خلق الله وأعزهم عليه وهو سيدهم بفضله جل وعلا، ورسوله إليهم في كل زمان ومكان من يوم بعثته عليه السلام إلى يوم الدين، وخاتم رسله وأنبيائه عليه وعليهم الصلاة والسلام لأنه الجامع لفضائل رسالاتهم كلها، والمصدق لها، والمهيمن عليها، فلا نبي من بعده، ولا رسول لإكتمال صرح الرسالة به كما يقول الأمير عبد القادر الجزائري، ولأن الإنسانية لها فيما أتاها به من عند ربه كل ما هي في حاجة إليه لتعرف طرق التقدم والخلاص وتسلكها، وليحقق كل فرد فيها ما تطمح إليه نفسه من الخيرات، ويعرف السعادة، ويعيش على وفاق تام مع نفسه، ومع أمثاله، ومع هذه الأرض التي تؤويه، ومع هذا الكون الفسيح الذي يحيط بها وبه، ومع ربه الذي خلقه وأمثاله، وجعله خليفته في أرضه وأمره بطاعته والإبتعاد عن معصيته حتى يكون له نعيم هذه الدنيا الفانية، ونعيم

الآخرة الباقية. ولهذا، فإن مولده عليه السلام يفرض علينا أن نرى فيه حدث التاريخ الأعظم الذي يؤذن ببعثه عليه الصلاة والسلام إلى الناس كلهم وبنزول القرآن عليه من عند ربه ذكرا للعاملين، تبيانا لكل شيء، ولاسيما للمبادئ السامية التي يجب على الإنسانية كلها إتباعها في تنظيم حياتها حتى تكون إنسانية بالحق.

3- إن مولده عليه الصلاة والسلام هو مولد لآخر الأنبياء والمرسلين، ومولد للهدى الذي كانت الإنسانية تتوجه نحوه عبر القرون، وتطمح إليه، وبالتالي فهو مولد لعهودها الجديدة، ولما ستعرفه فيها من الأمجاد التي ستتحقق على أيديها كلما استجابت لأمر ربها، فتكتمل إنسانيتها وترقى بقدر استجابتها وفهمها له، ويعني هذا أن مولده عليه الصلاة والسلام لا يمكننا أن نفهم أهميته بالنسبة للإنسانية ولا عظمته ومركزيته بين أحداث تاريخها إلا إذا نظرنا في إطاره الزماني والمكاني الذي وقع فيه، وفي علاقته بأحداث التاريخ من قبله ومن بعده، ورأينا على حقيقته ورأينا كيف ينفصل عنها ليكون الحد الفاصل بينها، والحدث الأعظم والأسعد الذي يفسر غامضها، ويجلو مبهمها، ويمنحها معناها ويستجيب لما تتطلبه من الإكتمال لتنشأ عنها إنسانية صالحة، فما نقوله نحن المسلمين عن التاريخ ووجهته، وما يقوله غيرنا عنهما لا يتطابق بالكلية مع ما تشير إليه مسيرة هذا التاريخ، ولا يتطابق مع واقعه، وتوجهاته الخفية لأسباب عدة تفسد رؤية جميعنا للأمور على حقيقتها، وتجعل كلا منا يراها كما تحلم به أنانيته وبما يسمح له به قصوره وغروره.

4- لقد ولد النبي عليه الصلاة والسلام في ظروف ممتازة وخاصة تشير بوضوح وجلاء إلى ما في مولده من الدلائل على علاقته بتاريخ البشرية كلها وتجعل منه أكبر معلم له يمكننا من الإحاطة بحركاته المتعارضة وأحداثه المتلاطمة، ويمكننا من تتبع مسيرته في اتجاهاتها المتعددة المتقاطعة، ومن فهمها على حقيقتها، والعلم من خلال فهمنا لها بأن هذه الأرض والأكوان التي تحيط

بها هي لله وحده وبيده دون سواه، فوقها وأيا كانوا، ما هم إلا مجرد مارة بها لأن كل واحد منهم سيتركها في وقت ما كما حل بها في وقت ما على الرغم منه، وبأن حياتهم بها لا تكون لها قيمة إلا بالخير الذي يكون منهم فوقها، وتبعا لهذا فكل إنسان فيها ضعيف مهما كانت قوته إذا وقف حياته هذه لتأكيد ذاته بها، وقوى مهما كانت وضعيته إذا وقف حياته هذه لأعمال الخير إستجابة لأمر الله، وقياما بما أوجبه عليه فيها من الصلاح والإصلاح.

وفي القرآن الكريم : "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ" **(الأنبياء:105)** .

5 –وهكذا فولادة أمه سيدتنا آمنة بنت وهب له عليه الصلاة والسلام بعد موت أبيه عبد الله بن عبد المطلب.

وولادتها له عليه السلام في دار جده عبد المطلب طـــاهرا مختونا، مقطوع السرة، رافعا رأسه إلى السماء وفي غمرة من النور خرج منها رضي الله عنها، معه، فأضاءت ما بين المشرق والمغرب إلى أن تراءت قصور الروم والشام، لها ولمن كان يسكن بطحاء مكة.

وولادتها له عليه السلام بعد استقرار نطفته الكريمة بها، وانتقال النور المكنون إليه، واخضرار حقول مكة، وازدهارها بألوان نباتاتها إذاك، وقد كانت قريش في جدب شديد، فسمت سنتها تلك بسنة الفتح.

وولادتها له ثم إرساله إلى البادية مع حليمة السعدية رضي الله عنها لترضعه، وتقوم على تبيته بها، وشق الملكين لصدره الكريم من بعد ذلك، وعمره حوالي ثلاث سنين، وإيداعهما به من الإيمان والحكمة والعلوم، والأسرار ما لا يعلمه إلا الله.

وولادتها له ثم موتها وعمره حوالي ست سنين، وكفالة جده عبد المطلب له، ثم عمه أبي طـــالب من بعده، وسفره مرة أولى مع هذا الأخير إلى الشام، ومرة ثانية في تجارة لأمنا خديجة رضي الله عنها ثم زواجه منها وقد كان عمره

خمسا وعشرين سنة، وعمرها خمسا وأربعين سنة، وتظـليل الغمام له في سفره، ومعرفة الراهب بحيرا له، وحضوره فيما بعد لحلف الفضول، وتحكيمه بين أشراف مكة حين اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود بمكانه من الكعبة بعد انتهائهم من ترميمها، ثم نزول الوحي عليه وهو يتعبد بغار حراء، لدلائل ساطـعة باهرة تفرض علينا أن نرى فيها حدثا عظـيما يتجاوز دائرة عائلته عليه السلام، ودائرة بلده لأنه حدث يجد صدى له فوق الأرض كلها، ويتجاوز زمن وقوعه لأنه يشع على الأزمنة كلها، ويتجاوز واقع الناس المرئي لأنه على صلة بعالم الأرواح من الجن والملائكة.

6- هذا، وأنه ليمكننا أن نعد من أمثال هذه الإرهاصات التي صاحبت مولده عليه السلام، وأبرزت أهميته للناس، ما وقع لإيوان كسرى من التداعي والانهيار، وما أصاب نيران بيوت الفرس من الخمود، وعيونهم من الجفاف، وما أحست به الخلائق كلها من الفرح والسرور والابتهاج، وما امتلأت به الأجواء من أصوات الهواتف التي كانت تبشر بمولده عليه السلام، وبأنه قد حق للبشرية الهناء.

إنه لصحيح أن العقل قد لا يأخذ بعين الاعتبار هذه الحوادث، وقد ينكرها لأن فيها خرقا للعادة المألوفة، ولكن تضافرها وإرتباطـها بحادثة مولده عليه السلام من جهة، وبما سيترتب على هذه الحادثة بعد حين، من جهة أخرى، يجعل منها حوادث معقولة المعنى، ويجعل من مولده عليه السلام حادثة ترتبط عن طريقها بأحداث التاريخ والكون، وتحتل منها مكان مركز الدائرة من أشعتها.

7- هذا، وفي مولده عليه السلام في القرن السادس للميلاد، وفي عام الفيل بمدينة مكة في شبه الجزيرة العربية، لأدلة ساطـعة أخرى على أن ظـهوره للوجود له علاقة بتاريخ الإنسانية ووجهته أكثر مما له علاقة بعائلته وبلده.

ولقد ولد عليه السلام في العام الذي أتى فيه أبرهة الحبشي بجنوده الجرارة ليهدم الكعبة، ويحمل العرب على الحج إلى البيت الذي بناه في اليمن

بلاده، جهلا منه بأن الكعبة هي أول بيت وضع للناس فوق الأرض، وجهلا منه بأن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد رفع قواعدها في زمانه مع ابنه سيدنا إسماعيل، وبأنه قد دعا الله جل وعلا وهو يرفعها معه أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة له، وأن يبعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياته، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، وجهلا منه بأن الإنسان الذي يتعدى على ما وضعه الله للناس من معالم الخير لا يكون مآله إلا الخسران المبين.

ولقد كان أبرهة يتقدم إلى مكة بجيشه، وهو على فيل عظـــيم، وكان يعتقد أنه سيحقق مبتغاه بما له من قوة، وأنه سيرجع إلى بلاده وسيجعل من بيته الذي بناه قبلة للناس، ولكنه لم ينجح في مسعاه، ولم يستطـــع حتى الدخول إلى مكة لأن الفيل الذي كان يحمله كان يأبى أن يتوجه به نحوها، ولأن الله جل وعلا جعل كيده وكيد أصحابه، وهو لا يرعوي عن غيه، في تضليل، فأرسل عليه وعليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول (سورة الفيل).

إن وقوع هذه الحادثة في العام الذي ولد فيه عليه الصلاة والسلام، يشير إلى المكانة العالية التي لهذه الكعبة في تاريخ البشرية الروحاني، ويشير إلى معاني الأهمية التي صارت له بعد بعثته عليه الصلاة والسلام، إذ صار قبلة يتوجه إليها الملايين من الناس في بقاع الأرض كلها كلما قاموا للصلاة فيؤكدون صلتهم بأجيال البشرية المؤمنة التي توجهت إليها من قبلهم في عبادتها، وهو أمر يستطيع الفكر المستنير أن يسبح في بحار دلالاته بإستمرار، وأن يكتشف فيها ما لا يصل إليه إلا من أيدهم الله بفتح وروح منه، فولادته عليه السلام في عام تربطها مباشرة بالبيت العتيق ومقامه عند الله بين بيوت العبادة في العالم، وبالحالة التي كانت عليها الديانة في الجزيرة العربية، وبما آلت إليه النصرانية مع مرور الأزمنة على أيدي ناس مثل أبرهة، وتربطها أيضا بسيدنا إبراهيم عليه السلام والدين الحنيف، وبالقرن السادس للميلاد الذي وقعت فيه، وبحالة العالم فيه ومستقبله انطـــلاقا منها.

8- أن وقوع ولادته عليه السلام في هذا القرن دون غيره يجعل منه قرن التحولات الكبرى في التاريخ البشري، ويبرز لنا كيف كانت أحداث العالم كله تنتظم، وكأنها تنتظر رسالة صاحبها لتنتقل بالإنسانية من أوضاعها القديمة إلى أوضاعها الجديدة التي ستوجهها نحوها عقيدة التوحيد السامية.

لقد كان العالم يعيش في هذا القرن على حين فترة من الرسل، وكان في حاجة إلى روح تبعث فيه الحياة من جديد، وتدفع به إلى أن يعي ما هو عليه من التدهور والركود والإنهيار، لينهض ويتقدم إلى الأمام، ويرقى إلى قمم الهداية العالية التي يريدها الله له بخطى ثابتة. لقد كان يعيش على بقايا الحضارات القديمة التي ظهرت في آسيا وإفريقيا، وأوربا وأمريكا، وعلى بقايا الديانات المنزلة وغيرها، ولكن من غير أن يكون له العلم الكافي بها للتلبس بما يدعو إليه أصحابها، والإنطلاق من جديد بفضل تعاليمها، ولهذا كان عالما منهارا، كل ما فيه يدعو إلى نهضة جديدة لا تنكر فتوحات الماضي، ولا تعرض عنها، ولكن تصدقها، وتحميها، وتثريها ولا تبقى الإنسانية على ركودها، وانحرافاتها، وجاهليتها، واضطراباتها ولكن توقظها، وتضعها أمام مسؤولياتها لتدرك حقيقة وجودها، وتعرف كيف تستجيب لمقتضيات هذه الحقيقة لأنها هي المسؤولة دون غيرها من الكائنات عن وضعها فوق هذه الأرض وما يمكن أن يترتب عليه من الخير والشر بالنسبة إليها.

9- وأنه ليمكننا إذا تأملنا خريطة هذا القرن، أن نرى أن الجزيرة العربية هي الجهة الوحيدة التي كانت الروح فيها تحاول بقوة وبلاغة، وفي تعاطف تام مع نفسها، ومع محيطها، ومع مطامحها أن تعرب عن وجودها بوضوح، وأن تعبر عن حقائق الوجود المجردة التي تتراءى لها بما يجعلها ملموسة، وعن حقائقه المادية بما يجعلها شفافة، وعن الواقع مهما كانت صورته بما يجعله يمنح سره، وعن مثل الإنسان العليا بما يجعل النفس تميل إليها، وتتحلى بها وتقبل التضحية من أجلها راضية مرضية، حتى يكون لها حضور في الواقع الملموس.

إن الأحداث المتعددة التي اكتنفت مولده عليه الصلاة والسلام، والتي تجعل منه حدث التاريخ الأعظم ومنارته، كلها عظيمة، ولكن ظهور اللغة العربية قبله بقليل كاملة سامية، ومن غير أن تعرف طفولة ولا مشاكل نمو مثل اللغات كلها، هو الحدث الذي بهر الفيلسوف الفرنسي " أرنست رينان "، وجعله يتساءل عن سره ومعناه، ويرى فيه الحدث الأعظم الذي كان انفجار الوعي الجديد الذي هو الإسلام في الجنس البشري يقتضيه حتى يمكن نقله إلى البشرية كلها بما يحتوي عليه من الثروات التي لا تتناهى، والتعاليم الرشيدة التي يتطلبها وضع الإنسانية، ووضع كل إنسان فوق هذه الأرض مهما كان زمانه ومكانه إلى يوم القيامة.

إن اللغة العربية في نظره لا يمكننا أن نقارن بها أية لغة أخرى، سواء كانت قديمة أو حديثة لأنها فوق المقارنة، ولأنه لا توجد لغة فوق الأرض تتحلى بصفاتها السامية، وقدراتها اللامتناهية، وملكاتها الفائقة. وهو إذ يرى فيها من المحاسن ما لا وجود لها في غيرها، يدلنا على الظاهرة التي تمنح لمولده عليه الصلاة السلام معانيه الإستثنائية، وتجعل منه حدث التاريخ الأعظم، والبداية المطلقة لعهود البشرية الحديثة إلى يوم الدين.

وهكذا، فالظواهر التي اكتنفت مولده عليه السلام، والتي تحدثنا عنها إلى الآن، كثيرة منها ما هو مرتبط بذاته الكريمة، ومنها ما هو مرتبط بوالديه وعائلته وقومه، ومنا ما هو مرتبط بالأمم العظيمة التي سادت هذا العالم، ومنها ما هو مرتبط بالكون، أو بوضع الإنسانية الثقافي، أو بما كان الناس يتشوقون إليه، انتظارا له وبدافع منه. وهي كلها تدل على أنه حدث تاريخي عظيم، ولكن بعثته وهو يبلغ الأربعين من عمره بآخر رسالة سماوية إلى البشرية كلها هي التي تدل على أنه حدث التاريخ الأعظم، وهي التي تمنحه بعده المركزي الذي هو له في تاريخ البشرية كلها، وتضفي عليه من الأنوار ما يظهر معه مولدا للهدى، ومولدا يحق للبشرية كلها أن تحتفل به، لأن صاحبه هو الرسول الذي اختاره

الله ليدعوها إلى طـــاعته، وليدلها بما يوحى إليه من الحق المبين على سواحل النجاح التي يجب عليها أن تتوجه نحوها، ليكون لها الفوز في الدنيا وفي الآخرة.

10- إن الإحتفال بالمولد النبوي الشريف يجب علينا نحن المسلمين، لأنه يعنينا، ولأنه يسمح لنا بالإعراب عن مدى تعلقنا برسولنا ودينه الحنيف، ويجب على أهل الكتاب لأنه مناسبة لهم تمكنهم من مراجعة نفوسهم، والنظـــر في موقفهم من صاحبه الذي يصفه الله في كتابه العزيز بكونه مصدقا لما بين يديه من الوحي ومهيمنا عليه، ويصف الدين الذي بعثه به بكونه ما هو إلا دين الأنبياء من قبله، دين أبينا آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليه وعليهم الصلاة والسلام، وبالتالي فهو وأمته أولى بهؤلاء من أممهم، في عصره ومن بعده إلى يوم الدين، ويجب أن يحتفل به الناس كلهم، لأنه مولد رسول الله إليهم، وداعيهم لطـــاعته بإذنه، ومن واجبهم أن لا يعرضوا عنه، وأن يهتموا به، لأن ما وصلت إليه البشرية، مسلمة كانت أو غيرها، في مجال الفكر، والعلم، والسياسة، والصناعة، والأخلاق، والدعوة أي حماية الإنسان وحقوقه وكرامته، كانت بدايته في بعثته عليه الصلاة والسلام، ولأن كل إنسان مسؤول عن موقفه منها بقدر ما له من الإمكانيات لفهم رسالته على حقيقتها، وفي القرآن الكريم : " قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً"**(الأعراف: من الآية158)**. **وفيه** : " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ" **(الأنبياء:107) وفيه** : " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً" **(الأحزاب:45-46)**.

إن هذه الآيات الكريمة تدل بكل وضوح على عالمية رسالته عليه الصلاة والسلام، وشمولها للناس كلهم، وتدل على أن الله أرسله رحمة للعالمين، وشاهدا، ومبشرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، ومن واجبنا نحن المسلمين، أن نعرف ما الذي يجعل رسالته دون رسالات الأنبياء من قبله، بهذه الصفة من العظـــمة والسمو، وما الذي يحملنا على الإعتراف لها بذلك، والإيمان به، والعمل طبقا لمقتضياته.

إن الذي يعرف مسيرة الإنسانية، سواء كانت مسلمة أو غيرها، ويعرف ما حققته من الإنتصارات التي تسمو بإنسانيتها، وتبعدها عن ظـلمات حيوانيتها منذ بعثته عليه الصلاة والسلام إلى اليوم، يعرف أنها لم تخرج في تحركها لتحقيق مطامحها عن الإطـار الذي حددته لها الرسالة المحمدية الخاتمة، أو عن التعاليم التي أتتها بها حتى تكون لله، وفي سبيله، وتكون بناءا على ذلك لما تقتضيه حقيقة ذاتها من المبادئ العليا، وفي طريقها إلى ما يسعدها دائما ولا يشقيها. لقد كانت حالتها هي هذه دائما، حتى في حالة ابتعادها عن الإسلام لجهلها به، أو لانحرافها في فهمه بسبب هجرها لدرسه، أو تركها للاجتهاد في درسه، كما هو شأننا نحن المسلمين، وحتى في حالة إعراضها عنه لعجزها عن الرقي إلى قممه بسبب انحرافها عن المنهج القويم في دراسته ودراسة ما يقوم عليه الوجود الإنساني الصحيح لإعتبارات تاريخية لها علاقة بالتعصب، والتعصب الأعمى، وبالتمرد على الأوضاع الفاسدة التي تنافي العقل وتجرح الكرامة، أو برفض الدين والكفر به، والسعي لتأكيد الذات، وتمجيد الإلحاد، والإيمان بالإنسان وقدراته عن طريق العلم وتطبيقاته مهما كانت نتائجها كما هو شأن غير المسلمين.

والذي لا شك فيه ويسلم كل من يعرف الإسلام وما يدعو إليه بعمق، ويعرف الأديان السماوية وغيرها، والمذاهب الفلسفية والصوفية وغيرها مما له علاقة بوجود الإنسان ومصيره، وهو أن الإنسانية سواء كانت مسلمة أو غيرها لا تصل إلى تحقيق ما تطمح إليه من الكمال والهناء، مع أن لها الإسلام وكتابه العزيز، لا لأن ما تطمح إليه فوق طـاقتها، ولكن لأنها تنحرف عن الجادة في طلبها له لأسباب عدة منها رؤيتها الفاسدة لذاتها وتقديرها لمطـالبها بدون معيار صحيح ومنها أنانيتها، وإخلادها إلى الأرض، وإتباعها لأهوائها، وجهلها وغرورها...

فأنواع الجهل التي تشقي إنسانية اليوم على كثرة فتوحاتها العلمية، والخلافات التي تضرم نيران الحروب بين شعوبها، والانحرافات التي تقضي على تماسك

مجتمعاتها، والأمراض التي تفتك بصحتها الجسمية والمعنوية، وأمواج البأس التي تتملك قلوب جماهيرها ولاسيما في المدن الكبرى التي لا يعرف فيها أحدا أحدا وهو يعيش بجانبه في نفس حيه وعمارته، والمخاوف التي تستحوذ عليها بسبب ما صنعته أيديها، والمصالح التي تملي على الدول سياستها تدل على أن إنسانية اليوم لا زالت لم تتحرر من كل القيود التي تمنعها من التقدم والطمأنينة على الرغم من كثرة تقنياتها ومسلياتها وإمكانياتها، وعلى الرغم مما تضفيه على مساعيها من حلل العالمية، والعقلانية، والأخلاق السامية، والإنسانية الفاضلة، والسماحة، والتسامح والرحمة.

إن إنسانية اليوم ليست واحدة الأقوياء والضعفاء، والأغنياء والفقراء، والسادة والعبيد، والعلماء والجهلة، والأحياء وأشباه الأحياء، ومن واجبها أن تكون واحدة لتعيش وتفلح. وما يقال عنها مما هو غير هذا، فما هو إلا مجرد بهرجة وتزويق، والأمثلة التي تؤكد ما نقوله كثيرة، ولسنا في حاجة إلى سردها.

لقد قامت بجهود جبارة عبر القرون للوصول إلى السواحل الآمنة التي تعرف فيها الوئام مع ذاتها، ومع محيطـــها، ومع خالقها، منذ بعثته عليه السلام إلى اليوم ولكنها لم تنجح لأن استجابتها كانت في أغلب الأحيان لغرائزها الدنيا، ولم تكن لنداء المثل العليا، أو تعاليم الديانات السماوية الصحيحة، ولا سيما توجيهات الإسلام الربانية من بينها.

إن الإسلام هو الدين عند الله، وهو آخر رسالة سماوية إلى البشرية كلها، وبالتالي فهو دعوة دائمة إلى عالمية تعاليمه التي لا يستطيع أن يعرض عنها أحد إذا عرفها على حقيقتها، وهي بهذه الصفة لأنها من فطرة الإنسان، والإنسان مسلم بفطرته، ولا يمكن أن يكون إلا مسلما إذا لم تفسد فطرته ظـــلمات الحيوانية والشيطـــانية.

12 –هذا، والذي يجعل هذه الرسالة المحمدية العظـيمة في أعلى مستويات الكمال يكمن في تصديق العقل السليم لها، وفي وجود هذا الأخير مبتغاه فيها، ويكمن في كون تعاليمها ليتوصل إلى فهمها في سموها وعمقها وصلاحيتها لكل زمان ومكان، إلا العلماء بالحقيقة. فالمكانة التي تمنحها للعقل وللعلم مكانة لا نجدها لهما في غيرها من الديانات والمذاهب الفلسفية أو العلمية، قديمة كانت أو حديثة هذا، ويمكننا أن نتصور أبعاد هذه المكانة للعقل والعلم فيها إذا عرفنا أن العقل هو الذي يتلقى تعاليمها، أن العلم الصحيح هو الذي يجلو للناس معانيها وأسرارها، وأنه ليمكننا، أيضا، أن نرجع إلى القرآن الكريم لنرى كم يؤكد على استعمال العقل ووزن كل شيء بمعياره، والنزول في النهاية عند شرعه، ولنرى كيف يؤكد على التحلي بالعلم لأنه مفتاح كل فلاح وعلى طلبه بقوة، وطلب الزيادة منه بإستمرار، ولنرى كيف ينص على أن العلم ليس هو الظـن، وكيف يدل على مسالكه وكثرة أنواعه، وكيف ينبه على قلة ما للإنسان منه، وعلى قبوله للزيادة بدون انتهاء، وعلى أن كل عالم فوقه من هو أعلم منه، ولنرى كيف يدل على أنه كمال الإنسان وشرفه وغناه وثروته، ولنرى كيف يدل على أن خشية الله والقرب منه، والعبودية له لا تكون إلا به. وفي القرآن الكريم : " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ"**(فاطر: من الآية28)**".

13 –هذا، وتمتاز تعاليم هذه الرسالة بتصديق العقل والعلم لها، وتأييدها لهما لأنها من الفطرة العقلية السليمة التي خلق الله الإنسان عليها ليكون خليفته فوق هذه الأرض، وليعمرها بدلا من أن يفسد فيها.

إن الإسلام هو دين الفطرة، وبما أن الفطرة واحدة لدى الناس كلهم فهو الدين الذي يستجيب بالضرورة لإرضاء ما تطمح إليه نفوسهم من الكمال، والدين الذي يحميهم من الوقوع في مهاوي الحيوانية والشيطانية التي تعمر أعماقهم وتنام بها، والدين الذي يدلهم على الطريق السوي في العقيدة والعبادة والعمل والمعاملة.

وفي القرآن الكريم : "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ" **(الروم:30)**.

فالفطرة التي خلق الله الإنسان عليها هي القاعدة التي تنبني عليها تعاليم الرسالة المحمدية وبما أن هذه الفطرة واحدة لدى الناس كلهم، فتعاليم الرسالة المحمدية هي أسمى ما يمكن للبشرية اتخاذه منهجا لها في الحياة.

14- هذا، وتستدعي هذه الفطرة التي تتطـــابق مع تعاليم الرسالة المحمدية بالضرورة وبالطبيعة لأن بعضهما من بعض، وإن يكون الناس كلهم من جنس واحد، وبالتالي كونهم أفراد لعائلة واحدة أبوها واحد وأمها واحدة. وفي القرآن الكريم : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" **(الحجرات: من الآية13)**.

وهكذا فلا وجود في الرسالة المحمدية العظـــيمة لأجناس مختلفة يفضل بعضها بعضا بإنسانيته، ولا وجود فيها بالكلية لما يدعو إلى التفرقة بين الناس بسبب مولدهم أو لغتهم أو بلدهم أو لونهم، وغير هذا من سفاسف الجهل والغرور التي عرفها الناس، وقاسوا منها الكثير عبر التاريخ، وفي بقاع الأرض كلها.

15- ويعني هذا أن الأخوة هي الرباط الوحيد الذي يجب أن يعتبره الناس فيما بينهم، وأن ينمو، وأن المساواة هي التي يجب أن يقوم عليها نظـــام وجودهم، وأن الحرية هي حق يجب أن يتمتع به كل واحد منهم، رجلا كان أو إمرأة، لأنه لا إنسانية لإنسان بدونها، ولأن أبوة آدم وأمومة حواء للناس كلهم تقتضيانها لكل منهما كما تقتضيان أخوة ومساواة كل إنسان لجميع الناس، وهو ما كان يعرفه سيدنا عمر بن الخطـــاب رضي الله عنه، ويؤمن به، ولهذا فإنه لم يتمسك حين أتاه رجل من أقباط مصر ليأخذ له بحق ابنه الذي ضربه ابن واليه في مصر، سيدنا عمرو بن العاص، وهم بضرب هذا الأخير، على شيخوخته، بدرته، وهو يصيح : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم

أمهاتهم أحرارا، إن هذه الكلمة التي انفجرت من أعماقه رضي الله عنه يرجع منبعها إلى ما اصطبغ به كيانه من روح هذا الدين الحنيف، ومن تعليم الرسول الكريم له، وهي كلمة لم يلقها أحد من قبله ولا من بعده، وتدل على أن الرسالة المحمدية العظـيمة لا مكان فيها للعبودية، والعبيد، وأنها قد منحت الإنسان حقوقه كاملة، وبرزت استحقاقه لها في القرن السابع للميلاد، وما على الإنسانية، مسلمة كانت أو غيرها، إلا أن تفهم الدرس، وأن تبرهن بالفعل على أنها حقا في مستوى ما تدعو إليـــه.

16- هذا، ويمكننا أن نرى تأكيدا رائعا لهذه الحقوق التي يجب أن يتمتع بها كل إنسان، فيما تقتضيه توجبه هذه الرسالة المحمدية العظـيمة من احترام كرامة كل إنسان، رجلا كان أو إمرأة، لأنها له من عند الله، وفيما تقتضيه وتوجبه من حماية كل إنسان في نفسه ودينه وماله وعرضه ونسبه وعقله، لأن التعدي عليه في كل واحد منها ما هو إلا تعد على حدود الله وشرعه، ونشر للفوضى والإنهيار في هذا العالم الذي يجب على كل إنسان أن يعمره وأن يصلح فيه لأن كل إنسان مسؤول عنه بقدر طـاقته واستطـاعته، وفي الحديث النبوي الشريف " **كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته** ". فالمسؤولية جزء من كرامة الإنسان، وهي التي تحدد له حقوقه وواجباته، تجعل منه إنسانا بالحق.

هذا، وفي القرآن الكريم : " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا" **(الاسراء:70)** .

17- فالإنسان من حيث هو إنسان كريم وهو جدير بالإحترام والتقدير والرعاية لصفته هذه، لأن الله هو الذي منحه إياها، وهي صفة تستدعي أن تكون العدالة والرحمة هي الأساس الذي تقوم عليه علاقات الناس بعضهم ببعض، واللجام الذي يمسكها، وما يجب أن يعامل به كل واحد منهم غيره.

وفي الحديث النبوي الشريف : " **إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**"، وفيه: " **والراحمون يرحمهم الرحمن** ".

18- إن هذه هي المبادئ التي تقوم عليها الرسالة المحمدية في جملتها وبإختصار وهي مبادئ لا زالت البشرية تسعى لأن تمنحها وجودا كاملا فوق أرض الواقع، ولا زالت رسالة آخر الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام تنتظر منها أن تكون في مستوى ما تدعوها إليه، أو في مستوى إنسانيتها بالحق. وهو أمر لا تستطيع أن تحققه إلا إذا تحررت من عبوديتها للحيوان والشيطان، وصارت لله بالمعرفة الصحيحة لحقيقتها، ومقامها في الوجود.

إن الإسلام ينتظر من المسلمين، اليوم أن يكونوا في مستوى إسلامهم بالحق، وهو ينتظر من غيرهم أن لا ينظروا إلى المسلمين وما هم عليه من التخلف في كل شيء إذا كان الفلاح هو غايتهم، ولكن إليه وما ذلك إلا لأنه دعوة دائمة لكل إنسان حتى يكون لله دون سواه، أي إنسانا كاملا يعرف حقيقة وجوده ويعرف ربه، ويعرف ما ينتظره منه لأن الأمر كله بيده، وليس له منه إلا ما يريده له، ويأمره به، ويقبله منه.

وفي القرآن الكريم : "وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ" **(الدخان:38، 39)** . وفيه أيضا : " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ" **(الذاريات:56-58)** . وعبادة الله جل وعلا تكون بالصلاة، وتكون أيضا بالأعمال التي نسعى بها لنفوسنا وعائلاتنا وجماعاتنا وبالمساعدات التي نقدمها لغيرنا من الناس وبالبحوث التي نقوم بها للتغلب على جهلنا، وعوالم المجهول التي تحيط بنا، وحتى باللعب لأن اللعب منه ما هو مرغوب فيه، ولأن الشريعة المطهرة لا تنافي الحياة الباسمة إذا كانت ذات وجه بريء عفيف. إن هذه المبادئ التي تحدثنا عنها، وبإختصار كبير، هي القوة في الرسالة المحمدية الخاتمة، ويعني هذا أنها هي التي تفضي على مولده عليه السلام مكانته في التاريخ البشري وعظمته، وهي التي تجعلها من كل عصر ومكان وصالحة لهما دون

غيرها، وهي التي تجعل منها دون سواها القاعدة التي لابد منها للحضارة الإنسانية الصحيحة، والإطار الوحيد الذي لا يمكن أن ترسم حدودها في غيره، والأفق الأعلى الذي يجب أن تتطلع الإنسانية إليه بإستمرار لترى من آياتها الكبرى، وبإذن من ربها وفتح منه.

19- هذا، ولقد رأى كثير من العلماء والمفكرين غير المسلمين ما في هذه الرسالة الإلهية من الحقائق العالية، والتوجيهات السامية، فأعجبوا بها، وأعربوا بشعورهم نحوها ببلاغة، ولكنهم لم يكونوا دائما في مستوى الفهم الصحيح لأبعادها كلها، فإنتقدوها وانتقدوا صاحبها بما جعلهم يتناقضون ولا يعون أنهم يتناقضون، وهو أمر غريب من طرفهم. ولهذا، فإنه لا يدل إن كان يدل على شيء-إلا على قصورهم في معرفة هذا الدين وصاحبه، وفساد طريقتهم في معالجة القضايا الكبرى التي يتوقف عليها مصير الوجود البشري، واعتمادهم على الأحكام المسبقة الباطلة في حكمهم على الإسلام ورسوله، وتعصبهم لدينهم حتى وإن كانوا من الملحدين فيه، كما يدل على نظـــرهم بإستعلاء لا مبرر له إلا الغرور، في كل ما يخرج عن نطـــاق مقولاتهم التي يعتقدون أنها مطلقة وهي ليست كذلك بالكلية.

فالكردينال "نقولا القوساوي" و" الكوندرسي" و"فولتير" و"هردر" و"هيجل" و" كارليل " وأمثالهم ممن كتبوا على النبي (ص) وعن الإسلام، وهم كثيرون ليسوا على صواب بالكلية في الكثير مما قالوه عنهما، على الرغم مما هو معترف لهم به من التبريز في تخصصاتهم فتناقضاتهم بارزة، وقصورهم عن المعرفة الكلية التي يدعيها كل منهم وانحرافهم عن جادة الحق لا يخفى إلا على من هو دونهم، أو يعتمد على ما يدلون به من غير طلب لتحقيقه والتحقق منه.

فالنبي عليه الصلاة والسلام فوق الحكم عليه وما بعثه الله به هو دائنا فوق كل ما يمكن للعقول النيرة أن تدركه، ولهذا فهو حافز دائم إلى التقدم والرقي، ولهذا فلا يمكن أن يفهمه على حقيقته إلا من يضع نفسه في خدمة البشرية كلها، ويواجهه

بقوة العلم والإيمان، ويرى عالميته الشاملة لكل الأجناس، واحتواءه على النور الذي لا تستطيع أن تهتدي البشرية بدونه في مساعيها ونشاطاتها كلها.

20- ولهذا، فمن واجبنا نحن المسلمين اليوم وفي كل مكان، أن نرجع إلى نفوسنا، وأن نتساءل عن مدى علاقتنا بهذا الإسلام، وعما يمنعنا من الإرتقاء إلى المستوى الذي يمكننا أن نتغلب فيه على تخلفنا عن الركب الحضاري، وعلى احتياجنا لغيرنا في كل شؤوننا، وعلى جهلنا حتى بجهلنا.

إنه يجب علينا أن نتساءل عن مستوى معرفتنا بالعقل وقدراته وعجائبه، وبالعلم وأعماق بحاره وأعالي قممه، وعن مستوى معرفتنا بالفطرة الإنسانية وظـلماتها وأنوارها، وبوحدة الجنس البشري ووجوهها وآفاقها، وبالكرامة الإنسانية ومعانيها وأبعادها، وبالعدل والتسامح والرحمة وسمو كل منها وجماله، لنفهم داءنا، ونعالج أنفسنا، ونخرج مما نحن فيه من الأوحال والأمراض والعاهات.

ولقد كتب الله على نفسه الرحمة، وبعث رسوله وأعز خلقه عليه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام رحمة للعالمين، وأمرنا بالرحمة لأن الرحمة هي التي تطمئن القلوب الحائرة وتهديها، ولأنها إشعاع الفضائل العالية التي تقوم عليها الحياة وتزهر بها، ولأنها مفتاح كل فرح وفلاح.

ومن واجبنا ونحن نحتفل بمولده عليه السلام أن نذكر هذا، وأن نذكر ما تدعونا إليه رسالته من أنواع الخير العالية، وما تنهانا عنه من أنواع الشر والفساد، لعل الله يهدينا إلى ما فيه خلاصنا ورضاه.

إننا اليوم في وضع لا يسر، ولن يفيدنا احتفالنا بالمولد النبوي الشريف إذا لم يكن مناسبة لنا يراجع فيها كل واحد منا قيمة علاقته بديننا، ويتساءل فيها عما يجب علينا أن نقوم به لنرجع إلى طريق الحق الذي انحرفنا عنه منذ قرون.

لقد صار ديننا متجرا يستغله أشباه العلماء ليحققوا به أغراض نفوسهم الدنيئة، وصرنا نحن المسلمين مضحكة الأمم بسبب ما نحن عليه من التخلف والإنهيار،

بعد أن كنا جوهرتها ومنارتها. ومن واجبنا، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين، أن نسعى جهدنا، قبل فوات الأوان، لنعود إلى ديننا، ويعود إلينا ديننا، وبالعلم الصحيح، وبإحياء جديد لعلومه يسمح لنا بأن نكون في المستوى الذي يجب أن يكون لنا في هذا العصر، ويسمح لنا بأن ننشد مع الإمام البوصيري، كما كانت مساجد الجزائر الغالية تنشد ذات زمان في مثل هذه الأيام بإيمان وحنان :

ليلة المولد الذي كـــان للديـــن ... ســـرور بيومـــه وازدهـــاء

وتوالت بشرى الهواتف أن قد ... ولد المصطفى وحق الهناء

صلى الله عليه وسلم